وانظر إلى جملة «يأتينا» الّتي تجيء على ألسنة القوم . والمعروف أنّ هذه الجملة لا تستعمل فى القرآن الكريم إلّا دليلًا على البعد الزّمانى أو المكانيّ أو المعنويّ النّفسيّ . وكأنّ اليهود فى مجيء هذه الجملة على ألسنتهم يستبعدون مجيء هذا الدّليل وتلك المعجزة ويعبّرون عن بعد تصديقهم لها وإيمانهم بها لو تحقّقت .

وتردّ الآية الكريمة على اليهود فوراً وتدحض ادّعاءهم وتكشف حقيقة نواياهم وتبيّن أنّهم ليسوا جادّين فى هذه الأقوال ولايقصدون معناها المباشر الحقيقيّ بل إنّهم يتلهّون بها ويكذبون بها على الآخرين . وهاهي ذى الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لهم إنّ الرّسل الّذين بعثهم الله تعالى إلى أسلافكم والّذين تسيرون على سننهم فى الادّعاءات العريضة وترضون عن أفعالهم الشّنيعة الّتى لا تتورّعون عن القيام بها لو تسنّى لكم ذلك فكأنّ أولئك الرّسل قد أرسلوا إليكم للتّشابه فى الصّفات والتّماثل فى التّعنّت والأفعال ، ولهذا جاء الخطاب متّجهاً إلى اليهود المعاصرين للمصطفى ﷺ وذلك فى القول : «قل قد جاءكم رسلٌ من قبلى بالبيّنات وبالّذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين» هاهي ذى الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لهم : قد جاءكم رسلٌ من قبلى بالبيّنات وبالّذى قلتم فلم قتلتموهم . وانظر إلى استعمال الجواب فى الآية الكريمة جملة جاء الّتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلّا دليلًا على القرب الزّمانىّ أو المكانيّ أو المعنويّ النّفسيّ ، وهى بذلك تشير إلى تحقّق ماظنه اليهود بعيداً أو مستحيلًا . فماهو موقف آبائهم من تحقّق ماطلب الذّرارى المماثلون لهم فى الأخلاق تحقّقه ؟ لم يصدّقوا رسل الله تعالى إليهم ، وقياساً على ذلك هم لن يصدّقوا المصطفى ﷺ لو تحقّق على يديه بإرادة الله تعالى ماطلبوا . بل إنّ القوم تجاوزوا كلّ الأمور الّتى لا تتمشّى ولا تتّفق مع تحقّق ماطلبوا من عدم تصديق للرّسول مثلًا إلى ارتكاب ذنبٍ من كبائر الذّنوب ألا وهو قتل أولئك المرسلين . وإن قتل الأسلاف للمرسلين يعنى أنّ الذّرارى لن يتورّعوا عن الفعل الشنيع ذاته لو استطاعوا .

والآية الكريمة لم تقف عندما طلب اليهود تحقّقه من الإتيان بالقربان الذّى تنزل عليه نارٌ من السّماء تأكله وتحرقه دليلًا على قبوله جلّ وعلا للقربان وعلى صدق مقدّمه ، لأنّ اليهود لم يقصدوا بطلبهم الدّليل وزيادة التثبّت بل أرادوا التّعنّت لأنهم طلبوا مايعلمون أصلًا عدم تحقّقه فقد شاءت إرادة الله تعالى ألّا تحقّق مايطلب المتعنّتون من المصطفى ﷺ من معجزاتٍ ماديّة حسّيّة لأنّ تحقيقها يعنى استئصال شأفة المصرّين على التّكذيب وقد سبق إلى علمه جلّ وعلا أن القوم لن يؤمنوا ، وكان فى الآية استئناسٌ من ناحيةٍ بتعنّت الأسلاف ، واستدلالٌ من ناحية أخرى بالبيّنات والآيات الواضحات الدّالّات على صدق

المرسلين الّذين أكرمهم الله تعالى بها . وإنّما كان الاستدلال بهذه الآيات البيّنات والاستدلال بتكذيب الأسلاف لها ، لأنّ اليهود المعاصرين يشتركون مع الأسلاف فى تكذيب الآيات ، وفى هذا التّكذيب للآيات البيّنات دليلٌ على تكذيبهم للمعجزات الحسّيّة لو تحقّقت . أو ليس اليهود المعاصرون للمصطفى ﷺ مكذّبين لأكبر الآيات البيّنات ألا وهى آيات القرآن الكريم معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة إلى يوم الدّين ؟ بلى . وحينما يكذّب اليهود المعجزة البيانية الكبرى الخالدة وهم الّذين يشتركون مع عرب الجزيرة فى امتلاك ناصية اللّغة العربيّة أليس فى ذلك الدّليل الأكيد على تكذيبهم المعجزة الّتى تقلّ دلالةً وامتداداً فى الزّمان والمكان ؟ بلى .

وهكذا نتبيّن فى الآية الكريمة مخاطبة المعاصرين وكأنهم الأسلاف للاشتراك فى الصّفات ولرضا المتأخّرين عن أفعال السّابقين السّيّئة ، كما نتبيّن استدلال الآية الكريمة بالملموس غير المطلوب وهو تكذيب اليهود للقرآن الكريم على المطلوب غير الملموس وهو أكل النّار للقربان الّذى لو تحقّق لما غيّر اليهود موقفهم .

والآية الكريمة فى أسلوب التّقريع والتّوبيخ والتّأنيب تسأل اليهود المعاصرين : فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ والمعنى أنتم أيّها اليهود المعاصرون المماثلون لأسلافكم فى الصّفات الرّاضون عن قتلهم الأنبياء فكأنّكم أنتم الّذين قمتم بالقتل فعلًا ، لِمَ قتلتم أولئك الرّسل الّذين جاءوكم بالبيّنات وبالّذى قلتم وهم الّذين يستحقّون أن يصدّقوا لو كنتم صادقين فى طلبكم الآيات واقتراحكم المعجزات من أجل تصديق الرّسل والإيمان بهم ؟ والدّليل على أنّكم لستم صادقين فى اقتراحاتكم طلبكم المعجزات الحسّيّة المحدودة الدّلالة والّتى تعلمون أنّها لن تتحقّق ، وإعراضكم عن أكبر الآيات والمعجزات الّتى تعلمون يقيناً صدقها ألا وهي معجزة الكتاب العزيز .

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

الزُّبر جمع زبور وهو الكتاب . وكلّ كتابٍ فهو زبور ، ومنه قول امرىء القيس :

لمن طلل أبصرته فشجانى كخطّ زبورٍ فى عسيب يمانى (١)

ويقول ابن كثير (٢) : «والزّبر وهى الكتب المتلقّاة من السّماء كالصّحف المنزلة على المرسلين» ويقول الرّاغب الأصفهانيّ (٣) : «وزبَرْت الكتابَ كتبتُه كتابةً عظيمة ، وكلّ كتابٍ عليظِ الكتابة يقال له زبور»

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى طلب اليهود من المصطفى ﷺ معجزةً حسّيّة ، وهذا الطّلب ذاته معناه الإعراض عن معجزة المصطفى ﷺ البيانيّة الكبرى الخالدة آيات الكتاب العزيز . وهذه الآية الكريمة التّالية تسلّى النّبيّ ﷺ وتعزّيه فتبيّن أنّه عليه الصّلاة والسّلام إذا كان قد كذّبه اليهود والمشركون ومن لفّ لفّهم فقد كذب رسلٌ من قبله عليهم الصّلاة والسّلام جميعاً فصبروا ، فعليه ﷺ أن يصبر هو الآخر . وقد جاء أولئك الرّسل بمثل ماجاء به المصطفى ﷺ من آياتٍ بيّنات وحجج واضحات وكتبٍ سماويّةٍ موحاةٍ من ربّ العالمين متلقّاةٍ منه جلّ وعلا كصحف إبراهيم وزبور داود عليهما الصّلاة والسّلام وكتبٍ منيرةٍ جليّة واضحة تهدى للطّريقة الّتى هى أقوم . لقد كذّب الذّين أعمى الله تعالى بصائرهم أولئك المرسلين كما كذّبك أيّها الرّسول الكريم أولئك الّذين أعمى الله تعالى بصائرهم . إنّ عليك أيّها الرّسول الكريم البلاغ وعلينا الحساب . وحينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة السّابقة قد أشارت إلى الآيات البيّنات ويفهم من السّياق أنّها آيات عقليّة فى المقام الأوّل وإلى المعجزات الحسّيّة ، نستطيع أن نفهم البيّنات فى هذه الآية الكريمة : «جاءوا بالبيّنات» بأنّها هي الأخرى الآيات البيانية العقليّة الموحى بها فى المقام الأوّل . وكأنّ الآية الكريمة تركّز على الآيات البيانيّة فى ثلاث صور البيّنات والزّبر والكتاب المنير ، وبذلك تعتبر الآية الكريمة معمّقة للدّور الّذى قامت به الآية الكريمة السّابقة حينما تجاوزت المعجزات الحسّيّة الّتى لن تتحقّق وأثبتت البيّنات تنبيهاً إلى معجزة المصطفى ﷺ البيانيّة وإلى إنكار اليهود لها . إنّ هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن البيّنات والزّبر والكتاب المنير منبهّةٌ لمعجزة المصطفى ﷺ البيانيّة ولإعراض اليهود والمشركين عنها .

وإنّ هذا التّجانس بين الآيتين الكريمتين فى تناول المعانى وعرضها نوعٌ من التّرابط بين الآيتين الكريمتين والتلاحم .

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/١٣٢
(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٣٤
(٣) المفردات ص ٢١١

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ
وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ
عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ
إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

أجوركم : أجور أعمالكم إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ (١)

فمن زحزح عن النّار : فمن نُحّي عن النّار وأبعد منها(٢)

فقد فاز : فقد نجا وظَفر بحاجته يقال منه : فاز بطِلْبته يفوز فوزاً ، ومفازاً ومفازةً إذا ظفر بها (٣) والفوز : الظّفر بالخير مع حصول السّلامة (٤)

والغرور مصدر من قول القائل :غرّنى فلانٌ فهو يغرّنى غروراً بضمّ الغين . وأمّا إذا فتحت الغين من الغرور فهو صفة للشّيطان الغرور الّذى يغرّ ابن آدم حتّى يدخله فى معصية الله فيما يستوجب به عقوبته (٥) والغرور فى كلام العرب الخداع (٦)

الآية الكريمة السّابقة سرّت عن النّبيّ ﷺ وسلّته حينما بيّنت أنّ مايصادفه عليه الصّلاة والسّلام قد صادفه الرّسل قبله فعليه البلاغ وعلى الله تعالى الحساب . وهذه الآية الكريمة تعمّق تلك التّسرية والتّسلية حينما تقرّر أنّ كلّ نفسٍ ذائقة الموت ، وفى مقدّمة الّذين يعنيهم هذا التّقرير اليهود الّذين يكذّبونك ومن لفّ لفّهم من المشركين والمنافقين الّذين يعتبرون الحياة الدّنيا نهاية المطاف ونعيمها غاية المنى . وليس المقصود بطبيعة الحال الموت فى حدّ ذاته ، إنّما المقصود مايترتّب على الموت من بعثٍ فحسابٍ ثوابٍ أو عقاب ، وقد نصّت الآية الكريمة على ذلك : «وإنّما توفّون أجوركم يوم القيامة» والمعنى وإنّما توفّوْن أيّها النّاس يوم القيامة أجوركم كاملةً غير منقوصة وتستوفون جزاء أعمالكم ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ . ومن البيّن أنّنا بصدد أسلوب الالتفات الّذى يشدّ انتباه المخاطبين شدّاً ومن ثمّ يفهم كلّ إنسانٍ أنّه هو المعنيّ بالخطاب : «وإنّما توفّون أجوركم يوم القيامة» وفى مقدّمة أولئك اليهود ومشركو العرب والمنافقون . وعليه تكون الآية الكريمة قد جمعت بين التسلية عنه ﷺ والتّسرية فى القول : «كلّ نفسٍ ذائقة الموت» وبين الوعيد والتّهديد فى المقام الأوّل وذلك فى القول : «وإنّما توفّون أجوركم يوم القيامة» .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/١٣٢
(٢) تفسير الطّبريّ ٤/١٣٢
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/١٣٢
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٣٨٦
(٥) تفسير الطّبريّ ٤/١٣٣
(٦) تفسير الطّبريّ ٤/١٣٣

وامتداداً للوعيد والتّهديد وبقصد التّحذير من الغفلة والحثّ على الحذر وعدم الاغترار يجيء القول : «فمن زحزح عن النّار وأدخل الجنّة فقد فاز» ويفهم من هذا القول أنّ النّار — لولا لطف الله تعالى وفضله — هي الأصل أو الأساس وليس الجنّة فبأيّ عملٍ أو اعتقاد يُزَحْزَحُ المكذّبون للمصطفى ﷺ عن النار ؟ وانظر إلى طبيعة جملة زحزح الّتى تستمدّ صرامتها وثقل وزنها وضخامة هيكلها وشدّة رسوخها وصلابتها من تكرار حرفي الزّاي والحاء . إنّ على المكذّبين أن يتحوّلوا فوراً إلى الصّراط المستقيم بتصديق المصطفى ﷺ والدّخول فى دين الإسلام وطاعة الله تعالى كى يزحزحوا عن النّار وكى يدخلوا الجنّة بعد ذلك بفضل الله تعالى حينما يتفضّل جلّ وعلا ويمتنّ بقبول أعمال العباد الصّالحة الّتى أرادوا بها وجهه الكريم جلّ وعلا فذلك هو الفوز العظيم، وصدر هذه الجزئيّة الكريمة إنذارٌ للمكذّبين وحثٌّ للمصدّقين على استباق الخيرات «فمن زحزح عن النّار» وعجز هذه الجزئيّة الكريمة تبشيرٌ للمصدّقين المؤمنين المتّقين : «وأدخل الجنّة فقد فاز» ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً من الفائزين بعفوه وفضله ومنّه جلّ وعلا أكرم الأكرمين . ثبت فى الصّحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النّبيّ ﷺ قال : موضع سوطٍ فى الجنّة خيرٌ من الدّنيا. اقرءوا إن شئتم : **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** (١)

وتقرّر الآية الكريمة فى جزئيتها الأخيرة : « **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ».أنّ هذه الحياة الدنيا ليست سوى متاع الغرور ونعيم الخداع إن مصير لذّاتها وشهواتها إلى زوال، ومآل زينتها وزخرفها إلى انتهاء ، وعاقبة نعيمها ومتعها إلى اضمحلالٍ فاختفاء لا حقيقة لشيءٍ من ذلك عند الفحص والاختبار ، ولا صحّة لشيءٍ من ذلك عند الامتحان والتّمحيص .

إنّ على المكذّبين أن يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا ، وإنّ على المصدّقين أن يتوكّلوا على الله تعالى وأن يستعينوا به جلّ وعلا وألّا يعجزوا . وبالله التّوفيق .

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٣٥

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا
وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

فإنّ ذلك من عزم الأمور : فإنّ ذلك الصّبر والتّقوى ممّا عزم الله عليه وأمركم به (١)

تبيّن الآية الكريمة فى خطابها للمؤمنين أنّ الله سبحانه وتعالى سيبتليهم فى أموالهم وأنفسهم وسيختبرهم فيما تصل إليه أيديهم من أشياء وفيمن يرتبط بهم بوشيجة دم أو صلة قرابة . وهذا المعنى يفصّله مثل قوله تعالى فى سورة البقرة (٢) : «ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثّمرات وبشّر الصّابرين . الّذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون . أولئك عليهم صلواتٌ من ربّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون» ومن مظاهر الابتلاء الّذى أصاب الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم بقيادة المصطفى ﷺ القَرْح الّذى أصابهم فى أحد من قتلٍ وجراح . ويقترن بذلك فقدان الغنيمة الّتى اقترنت بتباشير النّصر أوّل المعركة وفقدان شيءٍ من السّلاح وهو من قبيل المال .

ويلحق بالابتلاء فى الأموال والأنفس ـــ ويلاحظ تقديم الأموال لكثرة تعرّضها للجوائح ـــ ابتلاءٌ من نوعٍ آخر يتمّ هو الآخر بإرادة الله تعالى ، ألا وهو مايسمعه المؤمنون من الأذى الكثير الّذى يتفوّه به اليهود والنّصارى والمشركون . لقد أشارت الآيات الكريمات السّابقات مثلًا إلى بعض ماصدر عن اليهود من أقوالٍ فى حقّ الذّات العليّة وفى حقّ المصطفى ﷺ حينما يقترحون بعض المعجزات الحسّيّة التى تقلّ فى مجال الاقناع كثيراً عن آيات القرآن الكريم البيّنات . وقد سمع المسلمون فى غزوة أحدٍ مثلًا من المشركين أذىً كثيراً حينما يقول قائلهم : اعل هبل ، لنا العُزّى ولا عزّى لكم (٣) هذا إلى التّعرض لذات النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام والمؤمنين .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/١٣٣
(٢) الآيات ١٥٥ - ١٥٧
(٣) انظر تفسير ابن كثير ١/٤٦٥ وتفسير الطّبريّ ٤/٨٩ والسّيرة النّبويّة ٣/٤٥

والآية الكريمة تأمر المؤمنين ، بقيادة المصطفى ﷺ وفى كل زمانٍ ومكانٍ ، أن يصبروا على ما أصابهم وأن يتّقوا الله تعالى فى كلّ مايعملون ويتركون فإنّ الصّبر والتّقوى من عزم الأمور ، ممّا عزم الله عليه ، وأمر به ، وحثّ عليه ، ونصح به ..

وفى أثناء تفسير البخاريّ فى صحيحه (١) للآية الكريمة روى هذا الحديث عن أسامة ابن زيد أنّ رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على قطيفةٍ فَدَكيّة وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر قال حتّى مرّ بمجلسٍ فيه عبدالله بن أبيّ ابن سلول وذلك قبل أن يُسْلم عبدالله بن أبيّ فإذا فى المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عَبَدة الأوثان واليهود والمسلمين وفى المجلس عبدالله بن رواحة . فلمّا غشيت المجلسَ عَجاجَةُ الدّابّة خمَّر عبدالله بن أُبيّ أنفه بردائه ثمّ قال : لا تغبّروا علينا . فسلّم رسول الله ﷺ عليهم ثمّ وقف ، فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن . فقال عبدالله بن أُبيّ ابن سلول أيُّها المرء إنّه لا أَحْسَنَ ممّا تقول إن كان حقّاً ، فلا تؤذنا به فى مجلسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه . فقال عبدالله بن رواحة بلى يارسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فإنّا نحبّ ذلك . فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتّى كادوا يتثاورون . فلم يزل النّبيّ ﷺ يخفّضهم حتّى سكنوا . ثمّ ركب النّبيّ ﷺ دابّته فسار حتّى دخل على سعد بن عبادة فقال له النّبيّ ﷺ : ياسعد ألم تسمع ماقال أبوحُباب — يريد عبدالله بن أُبيّ — قال كذا وكذا ، قال سعد بن عبادة يارسول الله ، اعف عنه واصفح عنه ، فوالّذى أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحقّ الّذى أنزل عليك لقد اصطلح أهل هذه البُحيرة (٢) على أن يتوّجوه فيعصّبوه بالعِصابة . فلمّا أبى الله ذلك بالحقّ الّذى أعطاك الله شَرِق بذلك . فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله ﷺ وكان النّبيّ ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى . قال الله عزّ وجل : ولتسمعنّ من الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الّذين أشركوا أذىً كثيراً. الآية»

(١) صحيح البخاريّ ٤٩/٦

(٢) البحيرة تصغير البحرة وهى البلدة المنخفضة والرّوضة العظيمة

وأتذكّر بهذه المناسبة الأذى الّذى سمعه المسلمون فى أحد اللّقاءات الإسلامية المسيحيّة التّى يراد منها انتزاع اعتراف المسلمين بصحّة الدّيانة المسيحيّة بصورتها الّتى آلت إليها ، وإن كانت تلك اللّقاءات فرصةً مناسبةً للتّعريف بالإسلام والدّعوة إليه . أمّا الأذى الّذى سمعه المسلمون المشاركون فى ذلك اللّقاء فإنّه ذلك الّذى صدر ــ للأسف ــ مِنْ قسّيسٍ ينتمى إلى بعض البلاد العربيّة الإسلامية . وقد رشّحه الفاتيكان بالذّات للاشتراك فى ذلك اللّقاء لسببٍ عرفه المسلمون بعد ذلك وربّما قبل ذلك وهو أنّه لا يكاد يوجد من يفوق مثل هذا القسّيس فى بغض الإسلام والحرص على تشويهه. لقد اغتاظ المسلمون لذلك التّهجم على الإسلام ، وحينما تلوت هذه الآية الكريمة قال لى بعضهم : كأنّى أسمع الآية الكريمة تتلى لأوّل مرّة . وبفضل الله تعالى كسب المسلمون الجولة ، وحينما طبعت أعمال المؤتمر كان فيها العديد من الدراسات التى كتبها وألقاها فى المؤتمر مسلمون ، ولم تدوّن كلمة واحدة فى ذلك الكتاب من عبث ذلك القسّيس . ولله الحمد والمنّة .

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

واشتروا به ثمناً قليلًا : وابتاعوا بكتمانهم ما أُخِذَ عليهم الميثاق ألّا يكتموه من أمر نبوّتك عوضاً منه خسيساً قليلًا من عرض الدّنيا (١)

أخذ الله سبحانه وتعالى من النّبيين الميثاق بأن يؤمنوا بالرّسول الّذى يبعثه الله بعدهم وينصروه ، وقد أخذ النّبيّون بدورهم الميثاق من أقوامهم بأن يؤمنوا بذلك الرّسول وينصروه ، إلى أن يبعث خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ . جاء فى هذه السّورة الكريمة (٢) قوله تعالى : «وإذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسول مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فأشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين» وأخذ الله سبحانه وتعالى من أهل الكتاب الميثاق بأن يبيّنوه للنّاس على نحو ما أشارت الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . فمع الآية الكريمة .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى إذ المعنى : واذكر يامحمّد إذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب والعهد المؤكّد من اليهود والنّصارى لتبيننّ التّوراة والإنجيل للنّاس ولا تكتمون أيّ شيءٍ فى هذين الكتابين السّماويّين اللّذين أوحى الله تعالى أوّلهما إلى موسى عليه السّلام وثانيهما إلى عيسى عليه السّلام . وممّا تضمّنه الكتابان السّماويّان نعت المصطفى ﷺ خاتم النّبيّين محمّد بن عبدالله ﷺ . وإلى ذلك أشار مثلًا قوله تعالى (٣) «الّذين يتّبعون الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الّذى أنزل معه أولئك هم المفلحون» .

فما هو موقف اليهود والنّصارى من ذلك الميثاق الّذى أخذ عليهم بتبيين معنى التّوراة والإنجيل وعدم كتمانِ أيّ شيء تضمّناه ، والمعروف أنّ الّذين أخذ عليهم الميثاق فى المقام الاوّل علماء الفريقين ؟ موقفهم كما بيّنت الآية الكريمة : «فنبذوه وراء ظهورهم

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/١٣٤
(٢) سورة آل عمران ٨١ .
(٣) سورة الاعراف ١٥٧

واشتروا به ثمناً قليلًا فبئس مايشترون» تخيّل أمامك شخصاً يأكل تمراً وينبذ النّوى خلف ظهره ويلقى به وراءه باعتباره شيئاً لا خير فيه آنذاك ولا فائدة منه . إنّ علماء اليهود ـــ مثلًا ـــ نبذوا الميثاق الّذى أخذه الله تعالى منهم بتبيين معنى الكتابين السّماويّين وعدم كتمان شيء منهما وراء ظهورهم نبذ النّوى وألقوا عهد الله المؤكّد وراءهم ظهريّاً واشتروا به ثمناً قليلًا وابتاعوا به مقابلًا زهيداً وأخذوا عوضاً عنه من الرّؤساء المتملّقين والمرءوسين الجاهلين متاعاً رخيصاً فى هيئة مال ذاهب أو منصبٍ زائل أو جاه ماض . إنّ هذا الثّمن القليل بمثابة التّمر الحقيقي الّذى يحرص على أكله وازدراده أولئك العلماء الخائنون للأمانة . أمّا عهد الله تعالى المؤكّد والميثاق الّذى أخذه الله تعالى منهم فبمثابة النّوى الّذى ينبغى أن يطرح ويلقى وينبذ وراء الظّهر زهداً عن مجرّد النّظر إليه ودليلًا على نيّة عدم الرّجوع إليه . وبما أنّ الصّفقة خاسرة والتّجارة غير رابحة فقد ذمّت الآية الكريمة فى خاتمتها ذلك النّوع من الشّراء والتّبادل : «فبئس مايشترون» .

ومن القضايا الّتى خان علماء اليهود والنّصارى الأمانة بشأنها ونبذوا الميثاق واشتروا بها ثمناً قليلًا بقصد الحفاظ على سيطرتهم الرّوحيّة على الدّهماء بالباطل والكذب وكتمان العلم والحقيقة ، نعت المصطفى ﷺ خاتم النّبيّين محمّد بن عبدالله ﷺ : «الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل»

وهاهي ذى الآيات الكريمات السّابقات تشير إلى فرار اليهود من القرآن الكريم وإلهامهم له وطلب معجزاتٍ حسّيّة تقلّ فى مجال الدّلالة والبرهان عن القرآن الكريم . يحدث كلّ ذلك منهم إمعاناً فى نبذ الميثاق، الّذى أخذ عليهم، وراءهم ظهريا . ولايكاد عجبك يقف عند حدّ حينما يُفتّى أولئك الأحبار ناكثوا العهد المؤكد والميثاق ، مشركي مكّة عبّاد الأصنام والأوثان بأنّ دينهم الوثنيّ خيرٌ من دين التّوحيد الّذى جاء به محمّد ﷺ . وإلى هذا النّوع من نبذ الميثاق وخيانة الأمانة وكتمان العلم واستحقاق اللّعن بمعنى الإبعاد والطّرد من رحمة الله تعالى أشار قوله عزّ من قائل (١) : «ألم تر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الذّين آمنوا سبيلا . أولئك الّذين لعنهم الله ومن يلعنِ الله فلن تجد له نصيرا» .

« ورد في الحديث المرويّ من طرقٍ متعدّدةٍ عن النبي ﷺ أنه قال : من سُئل عن علمٍ فكتمه ألجم يوم القيامة بلجامٍ من نار »(٢)

والآية الكريمة التّالية وثيقة الصّلة بهذه .

(١) سورة النّساء ٥١ ، ٥٢

(٢) تفسير ابن كثير ٤٣٦/١

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

هذه الآية الكريمة شركةٌ بين اليهود وبين إخوانهم المنافقين ، وإلى هذه الأخوّة أشار مثلًا قوله تعالى فى سورة الحشر (١) «ألم تر إلى الّذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب» الآية . وتتّضح هذه الشّركة بين الفريقين فى معرفة سبب النّزول

روى الإمام أحمد أنّ مروان بن الحكم وهو أميرٌ على المدينة قال لرافع بن خديج بوّابه (٢) اذهب يارافع إلى ابن عبّاس فقل : لئن كان كلّ امرىءٍ منا فَرِحَ بما أتى وأحبّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل معذّباً لنعذّبنّ أجمعين . فقال ابن عبّاس مالكم وهذه ، إنّما نزلت هذه فى أهل الكتاب ثمّ تلا ابن عبّاس : وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلًا فبئس مايشترون . لاتحسبنّ الّذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . الآية . وقال ابن عبّاس : سألهم النّبيّ ﷺ عن شيءٍ فكتموه إيّاه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا (٣) من كتمانهم ما سألهم عنه . وهكذا رواه البخاريّ فى التّفسير ومسلم ، والتّرمذى والنّسائى فى تفسيريهما وابن أبى حاتم وابن خزيمة والحاكم فى مستدركه وابن مردويه (٤)

وروى البخاريّ :«عن أبى سعيد الخدريّ أنّ رجالًا من المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلّفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ . فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا . الآية . كذا رواه مسلم ... » (٥)

وهكذا يتبيّن العلاقة الوثيقة بين الآية الكريمة والآية السّابقة عليها ، وأنّ هذه الآية الكريمة ذات علاقةٍ وثيقةٍ بكتمان علماء بنى إسرائيل معاني التّوراة ، ونبذهم الميثاق ، الّذى أخذه الله تعالى عليهم بشأن تبيين معنى التّوراة ، وراء ظهورهم . وإذا كان الحديث المتّفق عليه قد نصّ على كتمان علماء بنى إسرائيل شيئاً من العلم عن المصطفى ﷺ فمن باب الأولى والأحرى أن يكتموا العلم عمّن سوى النّبيّ ﷺ من اصحّابه رضوان الله تعالى عليهم

(١) الآية ١١
(٢) انظر هنا تفسير ابن كثير ١/٤٣٧
(٣) الرّاوية الأخرى فى صحيح البخاريّ ٦/٥١ « أُتُوا » تمشّياً مع الآية الكريمة .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٤٣٦
(٥) تفسير ابن كثير ١/٤٣٧

أجمعين ومن اليهود أتباعهم وقد أفاض الطّبريّ فى ذلك فى اثناء تفسيره للآية الكريمة (١) عن ابن عبّاس : لا تحسبنّ الّذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يحمدوا بمالم يفعلوا . هم أهل الكتاب أنزل عليهم الكتاب فحكموا بغير الحق وحرّفوا الكلم عن مواضعه وفرحوا بذلك وأحبّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا . فرحوا بأنّهم كفروا بمحمّد ﷺ وماأنزل الله وهم يزعمون أنّهم يعبدون الله ويصومون ويصلّون ويطيعون الله فقال الله جلّ ثناوه لمحمّد ﷺ : لا تحسبنّ الّذين يفرحون بما أتوا ، كفروا بالله وكفروا بمحمّد ﷺ ويحبّون أن يحمدوا بمالم يفعلوا من الصّلاة والصّوم . فقال الله جلّ وعزّ لمحمّد ﷺ : فلا تحسبنّهم بمفازةٍ من العذاب ولهم عذابٌ أليم (٢)

إنّ الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ ألّا يحسبنّ بمفازة من العذاب الّذين يفرحون بما أتوا وهم اليهود والمنافقون . إنّهم يسرّون بما أتوا من قبيح الأفعال ضد الإسلام وضدّ الرّسول ﷺ والمؤمنين . اليهود يكتمون العلم ويجتهدون فى تضليل المسلمين وصرف غير المسلمين عن الإسلام . والمنافقون يفرحون بتخلّفهم عن الجهاد فى سبيل الله تعالى وبمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ وبنهيهم الآخرين عن أن ينفروا فى الحرّ جهاداً فى سبيل الله تعالى . إنّ كلّا من اليهود والمنافقين فرحٌ وفخورٌ بما أتى من ذنب وارتكب من معصية . وانظر إلى الجملة الّتى تستعملها الآية الكريمة والّتى تدلّ على البعد : «بماأتوا» وفى هذا إفهام بأنّهم ركبوا من الأمر شططا .

وإنّ كلّا من اليهود والمنافقين ، ويلحق بهم كلّ من فعل فعلهم واتّخذ موقفهم ، يحبّون أن يحمدوا بما يفعلوا . إنّهم فى الحقيقة يستحقّون الذّم بما فعلوا . إنّ اليهود كتموا العلم والحقّ وهم يحبّون أن يحمدوا بما أعلنوا من علم غير صحيحٍ ويعلمون أنّه علمٌ غير صحيح موهمين بصحّته ومعرّضين أو مصرّحين بطلب أن يحمدوا على ماأبدوا من علم . وإنّ المنافقين كانوا يقعدون خلاف رسول الله ﷺ إذ غزا العدوّ ، فإذا انصرف رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وأحبّوا أن يحمدوا بمالم يفعلوا .(٣)

والآية الكريمة تطلب منه ﷺ ألا يحسبنّهم بمفازةٍ من العذاب وبمنجاةٍ من العقاب كما يظنّون ، بل إنّ لهم عذاباً أليما . وإنّه يتمشّى مع تكرار جملة «تحسبنّ» تكرار العذاب مرّتين ، إنهم من ناحية ليسوا بمنجاة من العذاب . ومن ناحية أخرى لهم عذابٌ أليم .

وهكذا يتبيّن العودة للحديث عن المنافقين الّذين سبق الحديث عنهم كثيراً فى السّورة الكريمة والّذين فضحتهم غزوة أحدٍ أيمّا افتضاح .

(١) انظر تفسير الطّبرىّ ١٣٦/٤ فما بعدها
(٢) تفسير الطّبرىّ ١٣٨/٤
(٣) تفسير الطّبرىّ ١٣٧/٤

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

الآية الكريمة تكذيبٌ لليهود الّذين قالوا كما جاء فى آية كريمة سابقة : « إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء» وكيف يكونون أغنياء وإنّ كلّ مايملكونه هو ممّا امتنّ الله تعالى به عليهم وتفضّل . إنّ لله سبحانه وتعالى ملك السّماوات والأرض ومافيهنّ ، ومن ذلك مايملكه اليهود بفضل الله تعالى . وإنّ عمى البصيرة هو الّذى جعلهم يتورّطون فى سوء فهم معنى الآية الكريمة (١) : «من ذا الّذى يُقْرِض الله قَرْضاً حسناً فيضاعِفَهُ له أضعافاً كثيرة ، والله يقبض ويُبسُطُ وإليه ترجعون» وفى عدم الفهم لقوله تعالى (٢) :«وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه» وفى عدم الفهم لقوله تعالى (٣) :«ومأأنفقتم من شيءٍ فهو يُخْلِفُهُ وهو خير الرّازقين» . وإنّ عمى البصيرة هو الّذى جعلهم يتورّطون فى مثل هذا القول الّذى جاء على لسانهم (٤) : «وقالت اليهود يد الله مغلولة» وفى مثل هذا القول «إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء» . إنّ لله تعالى ملك السّماوات والأرض ولا تنفد خزائنه وهو جلّ وعلا على كلّ شيءٍ قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، يعجّل العقوبة لمن أراد أو يؤجّلها ، لا يسأل جلّ وعلا عمّا يفعل وهم يسألون .

(١) سورة البقرة ٢٤٥
(٢) سورة الحديد ٧
(٣) سورة سبأ ٣٩
(٤) سورة المائدة ٦٤

خواتيم سورة آل عمران

الآيات ١٩٠ - ٢٠٠

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

روى الإمام البخاريّ فى صحيحه (١)عن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : بتّ عند خالتى ميمونة فتحدّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً ثمّ رقد ، فلمّا كان ثلث اللّيل الآخِر قعد فنظر إلى السّماء فقال : إنّ فى خلق السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآياتٍ لأولى الألباب . ثمّ قام فتوضّأ واستنّ فصلّى إحدى عشرة ركعةً ، ثمّ أذّن بلالٌ فصلّى ركعتين ثمّ خرج فصلّى الصُّبح» وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : بتّ عند خالتى ميمونة فقلت : لأنظرنّ إلى صلاة رسول الله ﷺ فَطُرِحَتْ لرسول الله ﷺ وسادة فنام رسول الله ﷺ فى طولها (٢) فجعل يمسح النّوم عن وجهه ثمّ قرأ الآيات العشر الأواخر من آل عمران حتّى ختم ، ثمّ أتى شَنّاً (٣) معلّقاً فأخذه فتوضّأ ثمّ قام يصلّى ، فقُمت فصنعت مثلما صنع ، ثمّ جئت فقمت إلى جنبه فوضع يده على رأسى ثمّ أخذ بأذنى فجعل يَفْتِلها ثمّ صلّى ركعتين ، ثمّ صلّى ركعتين ، ثمّ صلّى ركعتين ، ثمّ صلّى ركعتين ، ثمّ صلّى ركعتين ، ثمّ صلّى ركعتين (٤) ثمّ أوتر (٥) ويضيف ابن كثير (٦) أنّ النّبيّ ﷺ بعد أن تلا الآيات إلى آخر السّورة قال : اللّهم اجعل فى قلبى نوراً وفى سمعى نوراً وفى بصرى نوراً وعن يمينى نوراً وعن شمالي نوراً ومن بين يديّ نوراً ومن خلفى نوراً ومن فوق نوراً ومن تحتى نوراً وأعظم لى نوراً يوم القيامة .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ لله تعالى ملك السّماوات والأرض وأنّ الله تعالى على كلّ شيءٍ قدير . وإنّ الآيات الخواتيم من سورة آل عمران تبيّن بعض مظاهر هذه الملكيّة والقدرة .

والآية الكريمة تقرّر أنّ فى خلق السّماوات السّبع الّتى لا يعرف مداها ومنتهاها إلّا الله تعالى ويكفى أن يعرف أنّ بين السّماء والأخرى مسيرة خمسمائة عام ، وأنّ فى خلق الأرضين السّبع بكلّ مافيها ، ونحن لم يؤتنا الله تعالى من العلم إلّا القليل ، وأنّ فى اختلاف اللّيل والنّهار من معاش ، إنّ فى خلق السّماوات والأرض ومافيهنّ ومن فيهن واختلاف اللّيل والنّهار لآياتٍ بيّناتٍ باهراتٍ دالّاتٍ على قدرة الله تعالى مالك الملك الغنيّ الكبير المتعال ، لآياتٍ لأولى الألباب وأصحاب العقول الرّاجحة والأفكار النّاضجة والبصائر النّيّرة .

وتشير مجموعة الآيات الكريمات التّاليات إلى بعض نعوت أولى الألباب .

(١) ١/٤٤٠

(٢) ونام عبدالله في عرضها كما في رواية أخرى للحديث ص ٥٢

(٣) شَنّاً : سِقاءً

(٤) يلاحظ أنّ الصّلاة ركعتين ستٌّ مرّات . وقد جاء حديثان آخران ص ٥٢ ، ٥٣ يفيد ان الصّلاة ركعتين ستّ مرات .

(٥) صحيح البخاريّ ٦/٥١ وانظر تتمة روايات الحديث ص ٥٢ ، ٥٣ والملاحظ أنّ الآيات الكريمات إحدى عشرة آية .

(٦) تفسير ابن كثير ١/٤٤٠

ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾

من سمات أولى الألباب أنّهم يذكرون الله سبحانه وتعالى ذكراً كثيراً فى كلّ الأوقات وكلّ الأحوال ، فى الصّلاة وفى غير الصّلاة . إنّهم فى غير الصّلاة مثلًا يذكرون الله تعالى ذكراً كثيراً فى كلّ هيئاتهم وأحوالهم ، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وفى حال الصّحّة وفى حال المرض . وإنّهم فى الصّلاة يذكرون الله تعالى ذكراً كثيراً . كما ثبت فى الصّحيحين عن عمران بن حصين أنّ رسول الله ﷺ قال : صلّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب . أى لا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم (١) وقال تعالى (٢) : «فإذا قضيتم الصّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصّلاة ، إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً» .

والمعروف أنّ ذكر الله تعالى هو العبادة الوحيدة الّتى لم يضع الشّارع الحكيم نهايةً لها لسهولة أدائها فى كلّ الأحوال .

وإذا كان للقلب حظّه الموفور من ذكر الله تعالى ، فإنّ للعقل حظّه هو الآخر من التّفكّر . إنّ ذكر أولى الألباب الله تعالى بضمائرهم وألسنتهم مقترنٌ بتفكّرهم فى خلق السّماوات والأرض ، وقد بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ فى خلق السّماوات والأرض لآيات لأولى الألباب . وهاهم أولو الألباب يتفكّرون فى خلق السّماوات والأرض ويتدبّرون خلق الله تعالى المتقن الّذى ماترى فيه من تفاوت فلا يملكون أنفسهم تجاه هذا الكمال المطلق إلّا أن تعبّر ألسنتهم عمّا امتلأت به نفوسهم من إكبار وإعجاب لذلك الكمال العجيب والجلال المهيب قائلة : ربّنا ماخلقت هذا باطلًا سبحانك ، والمعنى ياربّنا ماخلقت هذا الكون العظيم بسمائه وأرضه عبثاً تنزيهاً لك عن العبث والباطل بل لحكمةٍ جليلةٍ هي أن نَرْجِعَ إليك يوم القيامة كي تثيب المحسن بفضلك وتعاقب المذنب بعدلك وإنّا لنسألك يامن ربّيتنا بنعمك وآلائك أن تقينا يوم القيامة عذاب النّار وأن توفّقنا فى هذه الحياة الدّنيا لعمل الصّالحات الّتى نريد بها وجهك الكريم وأن تتقبّلها منا وأن تعفو عمّا بدر منّا من سيّئات إنّك على كلّ شيءٍ قدير .

وهكذا يتبين أنّ من أهمّ مايميّز أولى الألباب اليقظة والحذر وعدم الغفلة إنّهم على حذرٍ أكيد من سيّئاتهم ألّا تغفر ومن حسناتهم ألّا تقبل لذا هم يسألون الله تعالى أن يقيهم عذاب النّار وذلك معناه أنّهم قد زحزحوا عن النّار وأدخلوا الجنّة بفضل الله تعالى وذلك هو الفوز العظيم .

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٨/١
(٢) سورة النّساء ١٠٣

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾

إنّ أولى الألباب الّذين يسألون الله سبحانه وتعالى أن يقيهم عذاب النّار يعلمون أنّ دخول النّار هو الخزي الحقيقيّ والهوان الّذى ليس وراءه هوان . وهاهم أولاء فى دعائهم ربّهم جلّ وعلا يقرّرون هذه الحقيقة الّتى هم على علمٍ تامٍّ بها وإن لسان حالهم يسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقهم للعمل بما يدخلهم الجنّة بفضله جلّ وعلا وعفوه : ربّنا إنّك من تُدْخِل النّار فقد أخزيته . والمعنى ياربّنا إنّك من تدخل النّار يوم القيامة بِعَدْلِكَ مخلّداً فيها أو غير مخلّد فقد أخزيته وأهنته على رءوس الأشهاد وما للظّالمين من أنصار . وإنّ هذه الجزئيّة الأخيرة لتقرّر السّبب الّذى من أجله أدخل الله من أراد أن يخزيه النّار . إنّهم ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم بوضعهم الأمور فى غير مواضعها . وفى مقدّمة ماوضعوه فى غير موضعه العبادة الّتى صرفوها عن مستحقّها وهو الله تعالى وحده لا شريك له إلى من لا يستحقّها أو مالا يستحقّها من الآلهة المزعومة المدّعاة المخلوقة لله تعالى والّتى لا تخلق شيئاً ولا تملك ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورا .

إنّ أولئك الظّالمين ليس لهم يوم القيامة من أنصار يحولون بينهم وبين دخول النّار وعذاب الله تعالى أو يخرجونهم من النّار . وكأنّ حرف الجرّ مِنْ يفيد التّبعيض ، وكأنّ نفي بعض الأنصار آكد فى الدّلالة على نفي الكلّ .

رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾

وتوفّنا : واقبضنا إليك إذا قبضتنا إليك (١)

مع الأبرار : فى عداد الأبرار واحشرنا محشرهم ومعهم . والأبرار جمع برّ وهم الّذين برّوا الله تبارك وتعالى بطاعتهم إيّاه وخدمتهم له حتّى أرضوه فرضي عنهم (٢)

فى هذه الآية الكريمة يبين على ألسنة أولى الألباب الكيفيّة الّتى ينجون بسببها من الخزي ولا يظلمون أنفسهم ولا سواهم بل أن يكونوا عادلين وذلك بوضع الأمور فى نصابها . أما هذه الكيفيّة فهي الإيمان الّذى تحلّوا به بفضل الله تعالى . إنّ أولى الألباب يردّدون كلّ مرّةٍ هذا النّداء العذب «ربّنا» ، والمعنى هنا : ياربنا إنّنا سمعنا بآذاننا منادياً ينادى للإيمان وهو محمّد بن عبدالله ﷺ الّذى أنزلت عليه القرآن الكريم أشرف الكتب السّماويّة والّذى أرسلته كافّةً للنّاس بشيراً ونذيراً ورحمةً للعالمين والّذى ينادى أن آمنوا بربّكم مربّيكم بنعمه وآلائه وموجدكم من العدم فآمنّا بك ياربّنا وصدّقنا رسولك الكريم وكتابك العظيم ، وتمسّكنا بتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين . وإنّا على علمٍ تامٍّ ياربّنا بتقصيرنا فى جنبك وبذنوبنا وسيّئات أعمالنا ، وإنّا على علمٍ تامٍّ بأنّ لنا ربّاً غفوراً ، وها نحن أولاء ندعوك ربّنا أن تغفر لنا ذنوبنا بأن تسترها يوم القيامة يوم يقوم الأشهاد وأن تكفّر عنّا سيّئاتنا بأن تغطّيها ياربّنا فلا تظهرها بالعقاب عليها وندعوك ربّنا بأن تتوفّانا ، حين تقبضنا إليك، وأنت راضٍ عنّا ، مستمسكين بدين الإسلام الّذى رضيته وأتممت به النّعمة علينا كي نكون مع الأبرار من الّذين أنعمت عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/١٤٢
(٢) تفسير الطّبريّ ٤/١٤٢

إنّا لا زلنا مع يقظة أولى الألباب وحذرهم وعدم غفلتهم ، فهم حينما يتحدّثون عن إيمانهم يكتفون بالضّروريّ من القول الّذى يدل على استجابتهم لنداء الإيمان ، ووراء ذلك هم يتحدّثون عن ذنوبهم وعن سيّئاتهم الّتى يدعون الله سبحانه وتعالى أن يغفرها لهم ويكفّرها عنهم فضلًا منه وتعالى ومِنّة . إنّهم على علمٍ تامٍّ بذنوبهم وسيّئاتهم الّتى لو عاقبهم الله تعالى بعدله عليها لكان مصيرهم إلى النّار وبئس القرار ، وإنّ طمعهم أكبر فى فضل الله تعالى الّذى نادى عباده الّذين أسرفوا على أنفسهم بألّا يقنطوا من رحمة الله تعالى فإنّه جلّ وعلا يغفر الذّنوب جميعاً فعليهم أن ينيبوا إلى ربّهم ويتوبوا إليه توبةً نصوحاً . وإنّ أولى الألباب يثوبون إلى ربّهم جلّ وعلا امتثالًا لأوامره تعالى فيسألونه عزّ وجل أن يغفر ذنوبهم ويكفّر سيّئاتهم ، ويتجاوزون ذلك إلى الطمع فى فضل الله تعالى بأن يتوفّاهم مع الأبرار الّذين لا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون .

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

إمعاناً من أولى الألباب فى التّضرّع لبارئهم جلّ وعلا يجيء على ألسنتهم فى صدر هذه الآية الكريمة كذلك القول : «ربّنا» إنّهم يطلبون من ربّهم جلّ وعلا أن يعطيهم فضلًا مِنْهُ ومِنّةً ماوعدهم على ألسنة رسله جلّ وعلا الكرام . إنّهم قد استجابوا لرسله جلّ وعلا ، وإنّ أمّة محمّد ﷺ قد استجابت له عليه الصّلاة والسّلام وطبّقت تعاليم الكتاب العزيز وسنّة أشرف الأنبياء والمرسلين ، وهي وراء ذلك يصحّ فى حقّها قوله جلّ وعلا عن المؤمنين فى كتابه العزيز (١) :«والّذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون» فهؤلاء المؤمنون الّذين يؤمنون بالله ورسوله ويقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة ويسارعون فى الخيرات ويعملون الصّالحات يخافون ألّا يتقبّل الله تعالى منهم تلك الأعمال الصّالحة . والمعروف أنّه جلّ وعلا إنّما يتقبّل من الأعمال ماكان صالحاً وما أريد به وجهه جلّ وعلا الكريم ، وإنّ أولئك المؤمنين ليسوا واثقين من قبول الله تعالى أعمالهم الصّالحة ، بل إنّهم على وجلٍ من احتمال عدم قبول الله تعالى لها ، لذا فهم يسألون الله تعالى أن يؤتيهم ماوعدهم على ألسنة رسله بدخول الجنّة الّتى فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وإمعاناً من أولئك المؤمنين فى اليقظة وعدم الغفلة وفى الحذر هم يؤكّدون المعنى السّابق فى القول : «ربّنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك» بما يُعمّق إشفاقهم من عدم قبوله جلّ وعلا أعمالهم الصّالحة الّتى رجوا بعملها دخول الجنّة ، وبما يعبّر عن خوفهم من خزي الآخرة وذلك فى القول : «ولاتخزنا يوم القيامة» وإنّما يكون الخزي بدخول النّار وقد جاء على لسانهم من قبل «ربّنا إنّك من تدخل النّار فقد أخزيته»

(١) سورة المؤمنون ٦٠

وإنّ الجزئيّة الأخيرة فى الآية الكريمة معّمقة للمعنى السّابق بصورتيه وقوّة له «إنّك لا تخلف الميعاد» إنّ ربّ العزّة قد وعد ووعده الحقّ بإدخال المؤمنين المتّقين الجنّة بناءً على أعمالهم الصّالحة الّتى يتفضّل الله تعالى بقبولها . إنّهم يسألون الله تعالى أن يؤتيهم ماوعدهم على ألسنة رسله وهو جلّ وعلا لا يخلف الميعاد وهم ليسوا واثقين من أهليّتهم لدخول الجنّة وذلك معناه خوفهم من دخول النّار الّذى سألوا الله سبحانه وتعالى ألا يكتبه عليهم لأنّ فى دخول النّار خزياً لاخزي وراءه ، وهم يطمعون فى فضل الله تعالى وفى وعده بأن يزحزحهم من النّار وأن يكتب لهم الفوز بدخول الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض والّتى أعدّها الله تعالى للمتّقين .

عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجابٌ فقالت ياعبيد ، مايمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشّاعر : زرغِبّاً تزدد حُبّاً

فقال ابن عمر : ذرنا ، أخبرينا بأعجب مارأيتيه من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : كلّ أمره كان عجباً. أتانى فى ليلة حتّى مسّ جلده جلدى ثمّ قال : ذرينى أتعبّد لربّى عزّ وجلّ . قالت : فقلت والله إنّى لأحبّ قربك وإنّى أحبّ أن تعبد ربّك فقام إلى القربة فتوضّأ ولم يكثر صبّ الماء ثمّ قام يصلّى فبكى حتّى بل لحيته ثمّ سجد فبكى حتّى بلّ الأرض ثمّ اضطجع على جنبه فبكى حتّى إذا أتى بلالٌ يؤذنه بصلاة الصّبح قالت : فقال يارسول الله : مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وماتأخر ؟ فقال : ويحك يابلال : ومايمعنى أن أبكي وقد أنزل الله علىّ فى هذه اللّيلة : إنّ فى خلق السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآياتٍ لأولى الألباب . ثمّ قال : ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها (١)

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٤٠ وفي رواية ص ٤٤ : فقال يا بلال أفلا أكون عبداً شكور ؟

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

سبب النزول :ـ

قالت أم سلمة رضى الله عنها : يارسول الله لا أسمع الله يذكر النّساء فى الهجرة بشيءٍ فأنزل الله تبارك وتعالى : فاستجاب لهم ربّهم أنى لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى (١) وعن مجاهد قال : قالت أمّ سلمة يارسول الله : تذكر الرّجال فى الهجرة ولاتُذكر فنزلت : أنّى لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى الآية (٢)

فاستجاب لهم ربّهم : فأجابهم ربّهم كما قال الشاعر :

وداعٍ دعا يامن يجيب إلى النّدا فلم يستجبه عند ذاك مجيب (٣)

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قد استجاب لأُولى الألباب دعاءهم وقد قال تعالى (٤) :«وإذا سألك عبادى عنّى فإنّى قريبٌ أُجيب دعوة الدّاع إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلّهم يرشدون» وقال (٥) : «وقال ربّكم ادعونى أستجب لكم إنّ الّذين

(١) تفسير الطّبريّ ١٤٣/٤ وتفسير ابن كثير ٤٤١/١
(٢) تفسير الطّبريّ ١٤٣/٤
(٣) تفسير الطّبريّ ١٤٤/٤ وتفسير ابن كثير ٤٤١/١
(٤) سورة البقرة ١٨٦
(٥) سورة غافر ٦٠

يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنّم داخرين» . وانظر إلى لفظة الرّب الّتى تجيء فى القول : «فاستجاب لهم ربّهم» وقد عرفنا أنّ لفظة الرّبّ ترد على ألسنة أولى الألباب كثيراً ، والمعروف أنّ لفظة الرّبّ إنّما تستعمل فى مواقف الخصوص وحينما يراد التّنبيه إلى نعم الله تعالى وآلائه ووجوب القيام بالشّكر عليها ، وحينما يكون الجوّ عابقاً بشذا البشر والحبور ، الرّضا والامتنان . والآية الكريمة تصدّر بالفاء الّتى تدلّ على التّرتيب مع التّعقيب ، فإجابة الله تعالى سؤال عباده دعاءهم قد تمّ فوراً ، وقد بيّن جلّ وعلا لهم أنّه لا يضيع عمل عاملٍ من ذكر أو أنثى ، فللرّجال ثواب أعمالهم وللنّساء ثواب أعمالهنّ ، سواءً بسواء ، أو ليس بعض هؤلاء من بعض ، أو ليس الذّكور من الإناث والإناث من الذّكور ؟ إذن فالجميع فى الجزاء سواء ، وبما أنّ الحديث هنا عن الثّواب ، فالجميع فيه سواء .

وانطلاقاً من قول أمّ سلمة أمّ المؤمنين رضى الله عنها للنّبيّ ﷺ : لا أسمع الله يذكر النّساء فى الهجرة بشيء ، وهو سبب نزول الآية الكريمة ، يمّ الحديث عن هؤلاء المهاجرين خاصّة وقد قالت الأنصار عن أمّ سلمة رضى الله عنها : هي أوّل ظعينةٍ قدمت علينا (١) فهي أوّل امرأة هاجرت من مكّة إلى المدينة والمعروف أنها عانت كثيراً حتى تسنّى لها أن تغادر مكّة وأن تظفر بالهجرة رضي الله تعالى عنها وأرضاها : انطلاقاً من قول أمّ سلمة ذلك يبدأ الحديث بأولئك المهاجرين . فتنصّ الآية الكريمة من بين أولى الألباب على الّذين هاجروا من مكّة حيث كفّار قريش إلى المدينة المنورة حيث الأنصار والإيمان . وتنصّ من بين الّذين هاجروا على الّذين أخرجوا من ديارهم مكّة المكرّمة وأرغموا على مفارقة الوطن والأهل والأحباب والأموال ، وعلى الّذين أوذوا فى سبيله جلّ وعلا وما أشدّ صنوف الأذى الّتى تعرّض لها المهاجرون فى سبيل الله تعالى ، ومن هؤلاء أمّ سلمة رضى الله تعالى عنها .

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٤٤

ولمّا كان القتال ألصق بالرّجال وقد عنيت هذه السّورة الكريمة بالجهاد كثيراً وتحدثت فى زهاء ستّين آيةً كريمةً عن غزوة أحد ، فقد كان ثمّة حديثٌ عن الّذين قاتلوا فى سبيل الله وقتلوا فى سبيله جلّ وعلا من بين المهاجرين الّذين أخرجوا من ديارهم وأوذوا سبيله جلّ وعلا .

وما الثّواب الّذى ينتظر أولئك ؟ إنّه الّذى يتمشّى مع دعاء أولى الألباب من قبل وفي مقدّمتهم المهاجرون فى سبيل الله تعالى وذلك فى القول : «فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتنا وتوفّنا مع الأبرار» قال تعالى : «فالّذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفّرنّ عنهم سيّئاتهم ولأدخلنّهم جنّات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله» .

لقد كفّر الله تعالى عن أولى الألباب ، وفى مقدّمتهم المهاجرون المجاهدون فى سبيل الله تعالى ، كفّر الله تعالى عنهم سيّئاتهم ، وأدخلهم جنّات تجرى من تحتها أنهار الماء غير الآسن وأنهار اللّبن الّذى لم يتغيّر طعمه وأنهار الخمر اللّذةِ للشّاربين وأنهار العسل المصفّى .

إنّ ذلك الجزاء ثوابٌ من عند الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى عنده حسن الثّواب وعظيم الجزاء فاستمرّوا ياأولى الألباب فى طريقكم الّتى تفضى بكم بإذن الله تعالى وفضله إلى الجنّة الّتى فيها مالاعين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾

شاءت إرادة الله تعالى أن تصيب المسلمين فى أحدٍ أخيراً المصيبة وأن تدور الدّائرة عليهم ، وفى المقابل شاءت إرادة الله تعالى أن تمهل الكافرين ، وأن تمدّ لهم فى العمر ، وتنسأ فى الأجل وتطيل فى الأمل ، وتكثر لهم من المال والنّشب . يضاف إلى ذلك أنّ إرادة الله تعالى قد شاءت أن تبتلي بعض المؤمنين بالتّقتير فى الرّزق . وإنّ الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ ، والمراد فى الحقيقة كلّ فردٍ من أفراد أمّته ﷺ بألّا يغترّ بتقلّب الّذين كفروا فى البلاد وضربهم فى الأرض ومدّ الله تعالى لهم فى الرّزق وفى الأجل . إنّ ذلك استدراجٌ من الله تعالى لهم وإنّ الآخرة خيرٌ للمؤمنين من الأولى وقد جاء فى هذه السّورة الكريمة (١) خطاباً للمؤمنين الّذين أصابهم القرح فى أحد والّذين صدقوا ماعاهدوا الله تعالى عليه : «ولئن قتلتم فى سبيل الله أو مُتُّمْ لمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ ممّا يجمعون» .

والآية الكريمة التّالية تبيّن حقيقة مافيه أولئك الكافرون الجاحدون المعاندون من متاع .

(١) الآية ١٥٧

مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

إنّ المتاع الّذى يتقلّب فيه الّذين كفروا فى البلاد والنّعيم الّذى يرفلون فى حلله متاعٌ قليل فى حقيقته لأنّه مهما طال عمره فإنّ مصيره إلى الزّوال وستعقبه حسرة القوم الّتى ليس لها حدود وندمهم الشّديد بسبب تفريطهم فى جنب الله تعالى واعتبارهم الحياة الدّنيا غاية مناهم ومنتهى آمالهم . إنّ مأوى القوم بعد الوفاة ومصيرهم يوم القيامة إلى جهنّم ، وبئس المهاد جهنّم وبئس الفِراش هي والمضجع .

فليقارن المؤمنون بين مصير الكافرين السّيّء وبين المصير الّذى ينتظر بفضل الله تعالى المؤمنين المتّقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى كي يتبيّنوا أنّ تقلّب الّذين كفروا فى البلاد والمتاع الّذى ينعمون فيه ليس سوى حظّهم فى الدّنيا وحرثهم فيها وليس لهم وراء هذا الحظّ والحرث حظٌّ فى الآخرة ولا حرث ، وعليه فالّذين كفروا هم الأخسرون أعمالًا حقّاً ، أمّا المؤمنون المتّقون فينقلبون بفضل الله تعالى بنعمةٍ من الله تعالى ورضوان فى الحياتين الأولى والآخرة وسيكون لهم بفضل الله تعالى حياتان طيّبتان فى الأولى والآخرة .

والآية الكريمة التّالية تبيّن حظّ المؤمنين الموفور فى الجنّة نُزُلًا من ربّهم العزيز الغفور .

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

النُّزل : مايُعَدُّ للنّازل من الزّاد ، قال : فَلَهُمْ جنّات المأوى نُزُلًا . وقال : نُزُلًا من عند الله . وقال فى صفة أهل النّار : لآكلون من شجرٍ من زقّوم . إلى قوله : هذا نُزُلُهُمْ يومَ الدّين . فَنُزُلٌ من حميم . وأنزلتُ فلاناً أضفتُه (١)

تبيّن الآية الكريمة أنّ للّذين اتّقوا ربّهم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلًا من عند الله تعالى وإكراماً منه جلّ وعلا لهم . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنصّ على مرتبة التّقوى الرّفيعة الّتى تريد للمؤمنين أن يسموا إليها ويتحلوا بها ، كما أنّها تذكر لفظة الرّبّ فى القول : «لكن الّذين اتّقوا ربّهم» وهى اللّفظة الّتى لا يشبع من تكرارها الأتقياء ولايملّون ، وهي اللّفظة الّتى ترتبط بها مواقف الخصوص والبجهة والسُرور . وقد لحق بلفظ الرّبّ الضمير العائد إلى المتّقين فالله سبحانه وتعالى هو مربّيهم بعنايته ومنشّئهم برعايته . وإذا كنّا نحن البشر نحتفى بمن نكرمه ضيفاً عزيزاً ، فكيف بالنّزل إذا كان مقدّماً من مالك الملك لعباده المتّقين . إنّ تلك الفخامة وذلك الكمال والجمال يعمّق معنى كلٍّ منها ويقويه التّذييل فى الآية الكريمة : «وماعند الله خيرٌ للأبرار» إنّ الّذين برّوا الله تعالى بطاعتهم إيّاه وخدمتهم له حتّى رضى الله تعالى عنهم ، ماأعدّ الله تعالى لهم عنده يوم القيامة خيرٌ من كلّ متاعٍ فى الدّنيا زائل ونعيمٍ حائل ، فكيف إذا كان ذلك النّعيم متاعاً لاستدراج الكافرين تمهيداً لأخذ الله تعالى لهم أخذ عزيزٍ مقتدر . إنّ ماعند الله تعالى للأبرار لهو خيرٌ من كلّ خيرٍ فى الدّنيا وإنّ على المتّقين أنّ يفرحوا بفضل الله تعالى وبرحمته . إنّ ذلك خيرٌ ممّا يجمع الّذين زيّنت لهم الحياة الدّنيا ومن كلّ نعيمٍ فيها .

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٤٨٩

وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

خاشعين لله : خاضعين لله بالطّاعة مستكينين له بها متذلّلين (١)

بيّنت الآية الكريمة السّابعة والثّمانون بعد المائة أنّ الله سبحانه وتعالى أخذ ميثاق الّذين أوتوا الكتاب ، التّوراة والإنجيل ، بأن يبيّنوا معناه للنّاس وألّا يكتموه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلًا . وهذه الآية الكريمة فى السّورة الكريمة ذاتها تبيّن موقف الفئة القليلة الموافق للميثاق الّذى أخذ على أهل الكتاب والمخالف لموقف السّواد الأعظم من ذلك العهد الّذى أخذ عليهم . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ من أهل الكتاب ، من اليهود والنّصارى ، من يؤمن بالله تعالى إيماناً صحيحاً ويعبده جلّ وعلا وحده لا شريك له عبادةً صحيحة . وهؤلاء يؤمنون كذلك بما أنزل إليكم أيّها المؤمنون أتباع محمّد ﷺ وبما أوحاه الله تعالى من قرآنٍ كريم لخاتم الأنبياء وأشرف المرسلين ﷺ ويؤمنون بما أنزل إليهم ، من توراةٍ أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السلام وإنجيلٍ أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام ، ويبيّنون معاني الكتابين السّماويّين ويعلنون ماتضمنه كلٌّ من الكتابين من نعوت المصطفى ﷺ والبشارة به عليه الصّلاة والسّلام ولا يكتمون شيئاً من المعانى الّتى تضمّنها كلٌّ من الكتابين السّماويّين مهما كانت الإغراءات كبيرة ، ومن ثمّ هم لا يشترون بآيات الله تعالى ثمناً قليلًا ولاينقضون الميثاق الّذى أخذه الله تعالى بأن يبيّنوا معنى الكتاب .

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/١٤٧

إن هذا الفريق من أهل الكتاب الذى لا ينقض الميثاق ولا يشترى به ثمناً له أجره عنده ربه ، وقد فصلت سورة القصص ما أجملت هذه الآية الكريمة ، قال تعالى(١) : « آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنّا به إنه الحق من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السّيّئة ومما رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين » والمراد بالاجرين أو الأجر الّذين يؤتونه مرّتين أجر الايمان بالكتاب الاوّل التّوراة أو الانجيل ، وأجر الايمان بالقرآن الكريم .

وتقرّر الآية أنّ لله سريع الحساب . إنّ يوم الحساب قريب ، وإن الحساب سريع .

وقد ثبت فى الصّحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول لله ﷺ : ثلاثةٌ يؤتون أجرهم مرّتين فذكر منهم رجلًا من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بى (٢) .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تتحّدث عن الكتب السّماويّة التّوراة والانجيل والقرآن ، وذلك على غرار حديث صدر السّورة الكريمة عن هذه الكتب السّماوية ، وهذه الملاحظة سبق أن لاحظناها بشأن سورة البقرة ، فثّمة ترابط بين صدر السّورة وعجزها ، بين أولها وآخرها ، بين بدايتها ونهايتها .

(١) سورة القصص ٥٢ – ٥٥

(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٤٤

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ
وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

ورابطوا : ورابطوا أعداءكم وأعداء دينكم من أهل الشّرك فى سبيل الله . وأرى أنّ أصل الرّباط ارتباط الخيل للعدوّ كما ارتبط عدوّهم لهم خيلهم ، ثمّ استعمل ذلك فى كلّ مقيمٍ فى ثغرٍ يدفع عمن وراءه من أراده من أعدائهم بسوء ويحمى عنهم من بينه وبينهم ممّن بغاهم بشرّ كان ذا خيلٍ قد ارتبطها أو ذا رُجلة لا مركب له (١)

سورة آل عمران الكريمة الّتى عنيت فيما يزيد على السّتّين آية بالحديث عن الجهاد فى سبيل الله تعالى والحثّ عليه والمجاهدين فى سبيل الله تعالى والمهاجرين تختم بالحثّ على الصّبر والمرابطة وبتقوى الله تعالى .

والآية الكريمة تخاطب الّذين آمنوا لأنّهم هم وحدهم ثمرة منهج التّربية القرآنية النّاضجة اليانعة ولأنّهم المنتفعون من هذه التّوجيهات الرّبّانيّة والدّروس القرآنية . والآية الكريمة تأمر الذين آمنوا بالصّبر ابتداء ، لأنّه العمود الفقرى لكلّ العبادات . والصّبر ثلاثة أنواع ، صبرٌ على البلاء وصبرٌ على الطّاعة وصبرٌ عن المعاصى . وإنّ الأمر بالصّبر يشمل الأنواع كلّها . وإنّه بالنظر إلى ما تأمر به الآية الكريمة بعد ذلك من مصابرة ومرابطة وقد قال تعالى : « يا أيها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » وفى ضوء معنى المصابرة بأنّها مصابرة أعداء الله تعالى فى ميدان الجهاد فى سبيل الله تعالى فلا ينبغى أن يكون أعداء الله تعالى أشدّ صبراً منّا نحن المسلمين ، وفى ضوء معنى المرابطة بأنها المرابطة بالثغور وحماية الحدود المتاخمة للعدوّ الّتى يخشى اعتداء العدوّ على ديار الاسلام من جهتها ، نستطيع أن نفهم بأن المراد بالصبر فى المقام الأوّل الصّبر على الجهاد فى سبيل الله تعالى . وعليه تكون الآية الكريمة قد أمرت المؤمنين بالصّبر ، بمعناه الواسع وفى مقدّمة أنواع الصّبر ، الصّبر على الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وبمصابرة الكافرين بأن نكون نحن المسلمين أكثر صبراً فى ميدان القتال منهم ، وبالمرابطة فى سبيل الله تعالى وملازمة الثّغور وحماية الحدود المتاخمة لديار الأعداء .

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/١٤٩ والرّجلة بضمّ الرّاء القوة على المشى .

وتختم السورة الكريمة والآية الكريمة بأمر المسلمين بتقوى الله تعالى فى كلّ أحوالهم وفى السّر والعلن لعلّهم يفلحون . والمعروف أنّ مرتبة التّقوى عالية ومنزلتها رفيعة لأنّها تكاد تكون صنوا لمرتبة الاحسان . إنّ الآية الكريمة تأمر المسلمين بأن يتّقوا الله تعالى لعلّهم يفوزون وينجون . إنّ على المسلمين أن يستعينوا بالله تعالى ويتوكّلوا عليه جلّ وعلا وأن يعملوا جاهدين كى يظهروا بمظهر البعيد الهمة الّذى يحرص من الخير على أجمل صوره وأشرفها وأسماها وأسناها ألا وهى التّقوى الّتى وصّى الله تعالى بها المؤمنين كما وصّى بها الّذين أوتوا الكتاب من قبلنا بل التى أمر الله تعالى بها حبيبه المصطفى ﷺ .

روى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد السّاعدين أنّ رسول الله ﷺ قال : رباط يومٍ فى سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها (١)

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم المسلمين رشدهم وأن يوفقهم للعمل بتعاليم الكتاب العزيز وتعاليم أشرف المرسلين ففى ذلك عزّهم فى الأولى وفوزهم فى الآخرة .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين .
(مكة المكرمة مساء يوم السبت ١٤٠٥/١٠/٢٦ هـ)

(١) تفسير ابن كثير ٤٤٤/١

ثانيًا

سُورَة النِّسَاء حَتَّى نِهَايَة الجُزء الرابع

نصف الحزب ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا
زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ
بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ
وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ
كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ
مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ
فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ
ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ
هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ
قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾ وَٱبۡتَلُواْ
ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ
إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ
غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا
دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ
فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً
فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ
فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي
بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن
لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا
تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ
وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ
فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ
مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ
رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ
أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ
١٢ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٣
وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ
نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٤

وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي
ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا
١٥ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا
وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا
١٦ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ
أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩

وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ
بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ
بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ
مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

بَين يَدَي التفسير

الأمر بتقوى الله تعالى وصلة الأرحام وبالقسط في اليتامى والنساء.
الآيات ١ - ١٠

سورة النّساء مدنيّة . وتبدأ بالأمر بتقوى الله تعالى الّذى خلقنا من آدم عليه السلام الّذى خلق منه زوجه حوّاء وتأمر بأن نتّقى الأرحام بألّا نقطعها إنّه جلّ وعلا رقيبٌ علينا . وحينما تبيّن الآية الكريمة أنّ الرّبّ واحد والأب واحد والأم واحدة فذلك معناه أنّ الانسان أخو الانسان من جهة الرّب الواحد ومن جهة الأب الواحد والأمّ الواحدة. وحينما تأمر الآية الكريمة بتقوى الرّب الواحد و الإله الواحد فذلك معناه ضخامة المسئوليّة الملقاة على عاتق المسلمين فى سبيل نشر هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده واستنقاذ الإخوة فى الانسانيّة من شفا حفرة النّار الّتى يكادون يقعون فيها بسبب إشراكهم مع الله تعالى سواه وكى يحقّقوا أخيراً مرحلة التّقوى التى تأمر بها الآية الكريمة . ويتحول السّياق إلى فئةٍ تأخذ بنصيبٍ وافرٍ من الأخوّة الايمانيّة والانسانيّة وتأخذ بسببٍ فى العادة من صلة الرّحم . وهذه هى فئة اليتامى الّتى يأمر السّياق الأوصياء بإيتائهم أموالهم وألّا يُبدّلوا الحرام الكثير الجيّد من أموال اليتامى بالحلال القليل الرّدئ من أموالهم ، وبألّا يأكلوا أموال اليتامى فى أى صورة من الصّور فإن ذلك إثمٌ كبيرٌ وذنبٌ عظيم . وفى الآية الكريمة التّالية يتحوّل السّياق إلى يتامى النّساء فيدعو الأوصياء بخاصّةٍ إلى العدل فى مهورهنّ والنفقة عليهنّ . وإن الأوصياء إذا خافوا ألّا يقسطوا في اليتامى فلينكحوا ما طاب لهم من غيرهنّ وحلّ لهم وراق من الغرائب من الواحدة حتّى الأربع . وإنّما أباح الشّارع الحكيم زواج أكثر من واحدةٍ شريطة العدل ، فإن خفتم ألّا تعدلوا فتزوّجوا واحدةً أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألّا تعولوا وأقرب ألّا تجوروا وتميلوا عن الحقّ . ويأمر السّياق بعد ذلك الأزواج أن يعطوا زوجاتهم مهورهنّ الّتى جعلها الله تعالى حقّاً لهنّ على الأزواج عن طيب نفسٍ ورضا خاطر . فإن سمحت بعد ذلك نفس الزّوجة عن شئ من الصّداق فوهبته زوجها فمن حقّ الزّوج أن يأكله هنيئاً لا مشقة فيه ، مريئاً لا داء فيه .

وينهى السياق بعد ذلك الأوصياء وأولياء الأمور عن إيتاء السّفهاء من الرّجال والنسّاء والصّغار أموالهم الّتى جعل الله سبحانه وتعالى قياماً، أى تقوم بها معايشتهم من التّجارات وغيرها، وأن يرزقوهم فيها ويكسوهم وكأنّ ما يعطاه أولئك من المال ليس منه وإنّما فيه باعتباره نامياً متحركاً وفي ذلك تنبيه للأولياء بضرورة العمل من أجل تنمية الأموال فكأنّما أموالهم، وعليهم أن يقولوا قولًا معروفاً تطيب به نفوس أصحابها غير البالغين وغير المحسنين معالجتها.

وعلى ولاة أموال اليتامى أن يختبروا اليتامى فإن استبان لهم رشدهم وقدرتهم على حسن معالجة أموالهم دفعوا إليهم أموالهم وأشهدوا عليهم ، وتوصى الآية الكريمة ولاة الأموال بألّا يأكلوها مستغلّين إذن الشّارع الحكيم لهم إن كانوا فقراء أن يأكلوا بالمعروف متجاوزين الحدّ المسموح به من أجرة المثل أو قدر الحاجة الى الإسراف ، وبألّا يأكلوها ظلماً وعدواناً مبادرين إلى انتهابها قبل أن يكبر اليتامى ويبلغوا سنّ الرّشد . وتقرّر الآية الكريمة أنّه كفى بالله حسيباً لكلّ من الوصىّ واليتيم على العمل والنيّة .

ولما كان المشركون يجعلون المال للرّجال الكبار فقط ، فإن دين الاسلام العادل يرفع هذا الظّلم ويقرّر أنّ لكلٍ من الرّجال والنّساء حظه من أصل الميراث وإن تفاوتوا فى الانصبة :« للرّجال نصيبٌ ممّا ترك الوالدان والأقربون وللنّساء نصيبٌ ممّا ترك الوالدان والأقربون ممّا قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً »

فاذا حضر قسمة الميراث من لا يرثون من أولى القربى واليتامى والمساكين ،فإن السّياق برشدهم إلى رزق هؤلاء شيئا منه تسخو به نفوسهم وإلى قول المعروف الّذى تطيب به تفوسهم . وبشأن هذه الآية الكريمة ذهب فريقٌ من العلماء إلى كونها محكمة ، بينما ذهب فريقٌ آخر إلى كون آية الميراث قد نسختها . والحقيقة أنّه في كلّ الأحوال يصحّ إيتاء من حضر القسمة شيئاً وقول المعروف له .

ويأمر السياق أولياء اليتامى بأن يتّقوا الله تعالى وأن يقولوا لهم قولاً سديداً ليس فيه نهرٌ ولا استخفافٌ بهم وأن يعاملوا اليتامى كما يحبّون أن يعامل ذريتهم الضّعفاءَ أولياؤهم لو أنّ الله كتب على هؤلاء الوفاة وترك الذّريّة الضّعفاء . وكأن السّياق يقول للأولياء إنّ آباء اليتامى المتوفّين يريدون منكم أن تعاملوا ذرّيتهم الضّعفاء معاملةً كريمةً كالّتى تريدونها لذرّيتكم الضّعفاء . وينذر السّياق الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بأنّهم إنّما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون نار جنهم الموقدة .

آيات الميراث - الآيات ١١ - ١٤

آيات المواريث ثلاث ، كلّهنّ فى سورة النّساء وهى الآية الحادية عشرة والثّانية عشرة والآية الأخيرة من السورة . وقد تلا الآيتين الكريمتين المتتابعتين آيتان كريمتان تعقيبيّتان تبيّن أولاهما ثواب طاعة الله والتزام حدوده بما فى ذلك الميراث . وتبيّن أخراهما عذاب عصيان الله وتجاوز حدوده . وقد قال ابن تيمية رحمه الله تعالى عن آيات الفرائض الثّلاث :(فإن الله أنزل من الفرائض ثلاث آياتٍ مفصّلة ، ذكر فى الأولى الأصول والفروع ، وذكر فى الثّانية الحاشية التّى ترث بالفرض كالزّوجين وولد الأمّ ، وفى الثالثة الحاشية الوارثة بالتّعصيب وهم الاخوة لأبوين أو لأب)

حكم الزّنا في أوّل الاسلام - الآية ١٥ - ١٦

بعد أن بيّن السّياق الكثير من حقوق الرّجال والنسّاء واليتامى ، ذكوراً وإناثاً ، بيّن حكم الزّنا في أول الاسلام في آيتين كريمتين ، بيّنت أولاهما حكم الزّانية المحصنة وغير المحصنة ، وبيّنت أخراهما حكم الزّانى المحصن وغير المحصن . ولقد كان الحكم في أوّل الاسلام إذا شهد أربعة من الرّجال المسلمين بارتكاب المسلمة جريمة الزّنا أن تمسك في البيت وتحبس في المنزل حتّى يتوفّاها ملك الموت . أمّا الرّجل فعقوبته الأذى . وقد نسخت سورة النّور هذا الحكم وقد جاء في الحديث : البكر بالبكر جلد مائةٍ وتغريب عام . والثّيب بالثّيب جلد مائةٍ والرّجم .

شروط التّوبة الآية ١٧ ، ١٨

ختمت الآية الكريمة السّابقة بالقول : « إنّ الله كان توّاباً رحيماً » وفى أولى الآيتين الكريمتين اللّتين تتحدّثان عن التّوبة يحصر قبول التّوبة فى الّذين يعملون السّوء بجهالة معترفين فى أعماقهم بسوء عملهم معلنين بلسان الحال والمقال إسرافهم على أنفسهم وتقصيرهم فى جنب الله تعالى ثمّ يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم والله عليمٌ بالنّوايا حكيمٌ فيمن يقبل توبته جلّ وعلا ومن لا يقبلها . وفى الآية الكريمة الثّانية يُنفى قبول التّوبة عن الّذين يستمرّون فى عمل السّيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّى تبت الآن وذلك حينما عاين ملك الموت وبلغت الرّوح الحلقوم وعن الّذين يموتون وهم كفّار . إنّ لكلّ من الفريقين عذاباً أليماً .

وصايا بالنّساء وبيان المحرّمات منهنّ - الآيات ١٩ - ٢٣

يبيّن السّياق للّذين آمنوا أنهم لا يحلّ لهم ما كان يحّله العرب قبل الإسلام أو بعضهم بأن يرثوا النّساء اللّواتى توفّى عنهنّ أزواجهنّ كما يرثون ما تركوا من ميراث ، فقد كان أولياء الميّت فى الجاهليّة أحقّ بامرأته من أهلها ومن نفسها . كما لا يحلّ لهم أن يسيئوا عشرة الزّوجة كى تفتدى نفسها بصداقها أو بشئ منه أو بشئ من حقوقها ، إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنةٍ من عصيانٍ ونشوز وبذاء لسانٍ وما إلى ذلك . ويأمر بالمعاشرة بالمعروف وبالصّبر عليهنّ فى حال كرههنّ لغير الفاحشة المبيّنة فلعلّ الله سبحانه وتعالى يرزق منها أبناء صالحين . وإذا كان سبب الفراق هنا الزّوجة ، فإنّ السّياق يتحوّل إلى ذكر الفراق الّذى سببه الزّوج ويبيّن أنّه إذا أراد الطلاق من غير نشوز وسوء عشرة فليس له أن يطلب منها مالاً ، وإن كان قد أصدقها قنطاراً من الذهب . إنّ أخذ أىّ شئ من المطلّقة بهتانٌ وإثمٌ مبين . وتنكر الآية الكريمة التّالية ذات الكناية اللّطيفة عن الجماع بافضاء كلّ من الزّوجين إلى الآخر والانتهاء إلى أعمق أعماقه تنكر على الأزواج أنّ يأخذوا من مطلّقاتهم شيئاً وقد أخذن من الأزواج ميثاقاً غليظاً بأن يمسكوهنّ بمعروفٍ أو يسرّحوهنّ بإحسان .

وينهى السّياق بعد ذلك الأبناء عن الزّواج بزوجات الآباء إذا ماتوا عنهن أو طلقوهن ويبيّن السّياق أن ذلك النوع من نكاح الجاهليّين كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا . إنّ الصّفات السّيئة الّتى خلعت على نكاح المقت أكثر من الصّفات الّتى خلعتها آية سورة الاسراء على الزّنا قال تعالى : « ولا تقربوا الزّنا إنّه كان فاحشةً وساء سبيلاً » وجاء فى نكاح المقت قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النّساء إلّا ما قد سلف . إنّه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً »

ثم يتحدث السّياق عن المحارم من النّسب وما يتبعه من الرّضاع والمحارم بالصّهر . عن ابن عبّاس قال : حرّمت عليكم سبعٌ نسباً وسبعٌ صهراً وقرأ : حرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعمّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمّهاتكم اللّاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرّضاعة وأمّهات نسائكم وربائبكم اللّاتى فى حجوركم من نسائكم اللّاتى دخلتم بهنّ فإن لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الّذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلّا ما قد سلف إنّ الله كان غفوراً رحيماً » وفى الآية الكريمة تحريم سبع نسباً وستٍ صهراً وفى صدر الآية الكريمة التالية تمام السّبع صهراً ، قال تعالى : « والمحصنات من النسّاء إلّا ما ملكت أيمانكم » .

التَفسيـــر

الأمر بتقوى الله تعالى وصلة الأرحام وبالقسط من اليتامى والنساء. الآيات ١ - ١٠

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

من نفسٍ واحدة : آدم عليه السّلام (١)

وخلق منها زوجها : حوّاء عليها السّلام . خلقت من آدم عليه السّلام من ضِلَع من أضلاعه ، من شقّه الأيسر كما روي عن ابن عبّاس (٢)

وبثّ : نشـر (٣)

واتّقوا الله الّذى تساءلون به : واتّقوا الله أيها النّاس الّذى إذا سأل بعضكم بعضاً سأل به فقال السّائل للمسئول : أسألك بالله وأنشدك بالله وأعزم عليك بالله وما أشبه ذلك (٤)

والأرحامَ : واتّقوا الأرحام أن تقطعوها (٥)

رقيباً : حفيظا (٦)

تخاطب سورة النّساء المدنيّة فى أولى آياتها النّاس كلّ النّاس ، وفيهم كفّار مكّة بأن يتّقوا ربّهم الّذى خلقهم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالًا كثيراً ونساءً . فالمطلوب من النّاس أن يتحلّوا بالتّقوى الّتى تمثّل رفيع درجات الإيمان . وإن مجيء لفظ الرّبّ فى القول : «اتّقوا ربّكم» يشير إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ووجوب شكر العباد ربّهم جلّ وعلا ويشير إلى هذا الرّب الواحد . وإنّ الحديث عن خلق آدم عليه السّلام وخلق زوجه حوّاء من ضلعه الايسر وانتشار الخلائق رجالًا ونساءً من هذين الزّوجين يشير إلى الأبّ الواحد للبشرية وإلى الأمّ الواحدة . وقد عمّق الأمرَ بتقوى الرّبّ الواحد الأمرُ بعد ذلك بتقوى الإلٰه الواحد وعبادته جل وعلا وحده لاشريك له ، ذلك الإلٰه الواحد الّذى تسبّحون بحمده وتقدّسون له وتتساءلون به فى مثل قول السّائل للمسئول : أسألك بالله . ويعطف على السّؤال بالله تعالى أمرٌ من جنسٍ آخر وذو علاقةٍ بالأب الواحد البعيد والقريب والأمّ الواحدة البعيدة والقريبة ، أعنى الأرحام الّتى تأمر الآية الكريمة بوصلها وأن نتقى قطعها .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/١٥٠
(٢) تفسير الطّبريّ ٤/١٥٠
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/١٥٠
(٤) تفسير الطّبريّ ٤/١٥١
(٥) تفسير الطّبريّ ٤/١٥٢
(٦) تفسير الطّبريّ ٤/١٥٢

وعليه تكون الآية الكريمة قد تحدّثت عن الرّب الواحد والإلٰه الواحد والأب الواحد والأمّ الواحدة وتكون الآية الكريمة كذلك قد بيّنت الأخوّة الإنسانية وقرّرت أنّ الإنسان أخو الإنسان من جهة الخالق الواحد الرّبّ الإلٰه المعبود وحده لا شريك له ، ومن جهة الأب الواحد والأمّ الواحدة .

وحينما تأمر الآية الكرية كلّ النّاس بتقوى الله تعالى فإنّها بذلك تبيّن مسئوليّة المسلمين الكبرى تجاه هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده ومهمّة القيام بنشره فى الخافقين لأنّ أبناء البشريّة إخوةٌ للمؤمنين من هاتين الجهتين فعلى الأخ المسلم أن يعمل جاهداً من أجل استنقاذ أخيه من شفا حفرة النّار الّتى يكاد يقع فيها وذلك بدعوته إلى هذا الدّين وإلى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كي تتحقّق للإنسانية التّقوى عن طريق دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله رقيبٌ علينا فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ فى الأرض ولا فى السماء ، وسيجازى جلّ وعلا كلًّا على عمله ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ «ولايظلم ربّك أحدا» .

وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ
وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

ولاتتبدّلوا : تبدّل الشّيء بالشّيء فى كلام العرب أخذ شيءٍ مكان آخر غيره (١)

ولاتتبدّلوا الخبيث بالطّيّب : قال سعيد بن جبير : لا تتبدّلوا الحرام من أموال النّاس بالحلال من أموالكم . يقول : لاتبدّلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام (٢)

ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم : ولاتخلطوا أموالهم ، يعنى أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها مع أموالكم (٣)

إنّه كان حوباً كبيراً : عن ابن عبّاس قال : إثماً عظيماً (٤)

ممّا عنيت به الآية الكريمة السّابقة صلة الرّحم . وهذه الآية الكريمة تعنى باليتامى وهم عادةً يأخذون من الأرحام بسببٍ من الأسباب وهم إخوةٌ لنا فى الإيمان وفى الإنسانيّة والمطلوب صلتهم ورعايتهم .

وكيف تتم رعاية اليتامى ؟ تتمّ عن طريق إيتاء الأوصياء أموال اليتامى الّذين فقدوا آباءهم حينما يبلغون الحلم ويأنسون منهم رشدا . وتنهى الآية الكريمة الأوصياء أن يتبدّلوا الخبيث بالطّيّب ، والحرام من أموال اليتامى الكثير الجيد ، بالحلال من أموالهم القليل الرّديء . وإلى النّهى عن مثل هذا السّلوك غير الحميد والذّنب غير اليسير أشارت هذه الآية الكريمة من سورة المائدة (٥) قال تعالى : «قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتّقوا الله ياأولى الألباب لعلّكم تفلحون» .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/١٥٣
(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٤٩
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/١٥٤
(٤) تفسير الطّبريّ ٤/١٥٤
(٥) الآية ١٠٠

وهكذا تبيّن أن الباء فى قوله تعالى : «ولاتتبدّلوا الخبيث بالطّيّب» على بابها فقد دخلت على المبدل منه وذلك مثلًا على غرار قوله تعالى فى سورة البقرة (١) : «قال أتستبدلون الّذى هو أدنى بالّذى هو خير»

وتنهى الآية الكريمة بعد ذلك عن وسيلة أخرى غير مباشرة من وسائل الحصول على أموال اليتامى ظلماً وأكلها عدواناً وذلك بالنّهى عن خلط أموال اليتامى بأموال الأوصياء وضمّ أموال اليتامى إلى أموالهم بقصد الاستحواذ على أموال اليتامى . وقد نهي عن هذه الوسيلة في القول : « ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » لأنّ الغاية الغالبة من الاستحواذ على أموال الأخرين الأكل .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ أكل أموال اليتامي بطريقةٍ مباشرة كاستبدال الدّرهم الجيّد بالزّيْف والشّاة السّمينة بالعجفاء ، أو بطريقة غير مباشرة كالخلط الظّالم أموال اليتامى بأموال الأوصياء والضّمّ الباغى لأموالهم إلى أموال الأوصياء بقصد الاستحواذ عليها وأكلها تقرر الآية الكريمة أنّ كلّ الوسائل الّتى يراد بها أكل أموال اليتامى ظلماً وعدواناً هى ذنب وإثمّ كبير .

وقد بيّنت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة الكيفيّة الصّحيحة للتّصرّف فى أموال اليتامى . قال تعالى (٢) : «ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المُصْلح ، ولو شاء الله لأعنتكم ، إنّ الله عزيزٌ حكيم» .

(١) الآية ٦١
(٢) سورة البقرة ٢١٩